



السبت 10 يونيو 2006
رقم العدد 481

يوميات السبت

يتمني أن يموت واقفا كالأشجار (2)
د. رءوف عباس بين هيكل وجيهان السادات

بقلم: عبدالمنعم رمضان



جردة الدكتور رءوف عباس جهيرة ذات صوت شديد الوطء، ذات جلجلة تشبه ضجيج الجبل، تشبه جلجلته، تمثليء الجردة بأكاديميين صغار وكبار، مجهولين ومعروفين، كومبارس ونجوم، والكومبارس أسماء معتمءة، بينما النجوم أسماء شفافة، وكلما تعلقت الحادثة بنجم من النجوم، ازداد فضولنا لأن اسم النجم يزيد من حدة مفعول الحادثة التي تنفتح علي مجال واسع غني بحوادث مماثلة بطلها هو ذلك الشخص نفسه، تأمل وانظر إلي الدكتور وهو يحكي عن محمد حسنين هيكل، لا أنكر أنه تجاوز حد استثارة الفضول إلي حد الشعور الخبيث بالرضا، ورغم خبثه الطاعن لا تأباه النفس، يقول الدكتور: بعد افتتاح المقر الجديد للجمعية التاريخية بشهر تقريبا، تم اللقاء مع هيكل بناء علي طلبه، وذلك بمكتبه الخاص علي شارع النيل، أبادي الأستاذ اهتمامه برسالة الجمعية وقال إن الشيخ سلطان القاسمي يشكر علي مكرمه يعني تأسيسه للمبني الجديد وبناءه وتيرعائه الأخرى، ولكن رعاية الجمعية ماديا يجب أن تكون من واجب المصريين، ورأي الأستاذ أن تكون هناك مجموعة من الرعاة المصريين في حدود العشرة أفراد يتبرع كل منهم للجمعية بمبلغ عشرين ألفا من الجنيهات سنويا ولمدة خمس سنوات ووعء بأن يتولي بنفسه تكوين مجموعة من الرعاة وأن يكون أول المتبرعين، ووافق من حيث المبدأ علي أن يلقي محاضرة في الموسم الثقافي القادم محذرا من أن ذلك قد يجر المتاعب علي الجمعية، في اليوم التالي للمقابلة حمل الدكتور رءوف مجموعة من مطبوعات الجمعية وخطاب شكر لهيكل علي المقابلة، بعد نحو أسبوع اتصل الأستاذ ليعلن عن شكره علي الكتب المهءاء، ثم قال إن لديه سؤالا مهما حول الجمعية، قد يبدو نافها ولكنه مهم بالنسبة له، هل لمن يسمي عبد العظيم رمضان علاقة بكم؟ أجاب الدكتور رءوف: إن رمضان كان عضوا منذ سنوات، ولكن أسقطت عضويته لانقطاعه عن سداد اشتراكات العضوية، وأنه لا هم له إلا الهجوم علي الجمعية ورئيسها، فقال الأستاذ: يعني مش سايب حد، علي العموم شكرا، وظل الدكتور يتصل بمكتب هيكل علي فترات متباعدة فكان يتلقي رءا بأن الأستاذ غير موجود أو أنه نبه إلي عدم ازعاجه، باختصار هرب الأستاذ، أعود وأقول إن حكايات الدكتور عن النجوم والكومبارس ظلت محصورة تقريبا في مجالها الأكاديمي في مجال أستاذ الجامعة، وكان جردة الدكتور لا تتسع لحيواته الأخرى، حتي الذين اشتغلوا بالتاريخ الحديث من غير الأكاديميين لا نكاد نسمع عنهم نامة واحدة، صلاح عيسى ورفعت السعيد ومحمد عودة وطاهر عبد الحكيم وغيرهم، كما أن حياة الجامعة خارج قسم التاريخ تبدو منعمة وضائعة، الرجل أثر أن يكتب عما يعرف، وتكاد أراؤه في زملائه وأساتذته وتلاميذه أن تنحصر في الإجرائي والعملية والإداري واليومي وتتبعء بإلحاح عن الفكري والنظري إلا فيما ندر، فعندما يذكر عزيز سوريال عطية الذي أجبره الاضطهاد علي أن يترك جامعة القاهرة

إلى الإسكندرية ثم يترك مصر ويهاجر إلى أمريكا، يقول عنه الدكتور عبارة يظن أنها وافية ويعد برنارد لويس نكرة مقارنة بعزيز سوريال عطية.

قلنا من قبل إن نغمة رعوف عباس الرئيسية تدخلها نغمات فرعية تتكرر فتصنع للنشيد العام ملامحه الخاصة، سأضرب مثلا علي إحدى هذه النغمات، يحكي الدكتور عن أنه بعد أن استقال من الشركة التي عمل بها كمراجع حسابات عقب حصوله علي ليسانس الآداب وتفرغ للدراسة، تصادف في الشهر الثالث من تفرغه، أن نشر إعلان في الصحف عن شغل وظيفة معيد تاريخ حديث في كلية الآداب جامعة القاهرة، الدكتور حصل علي الليسانس والماجستير من جامعة عين شمس، نص في الإعلان علي تفضيل من يحمل درجة الماجستير في التخصص، فسارع بتقديم أوراقه، ولكنه فوجيء بأستاذه أحمد عزت عبد الكريم يطالبه بسحب أوراقه لأن هذا الإعلان محجوز لشخص بعينه، وبعد فاصل حريف من الإصرار علي الحق وعدم التنازل عنه، ودون خوض في تفاصيل المعركة يتقرر تعيين رعوف عباس في الوظيفة، تتكرر الحكاية مرة ثانية بعد الحصول علي الدكتوراه التي تكفل له الترقية في حالة إجازة لجنة الترقيات لأعماله بطريقة آلية دون الحاجة إلي إعلان، لكن أستاذه أحمد عزت عبد الكريم يعرض عليه أن ينتظر ثلاثة أشهر ليتم الإعلان عن درجة مدرس بآداب عين شمس يتقدم لها ويعود إلي بيته العلمي، إلا أنه رفض وأصر علي عدم التنازل عن حقه الذي كفله له القانون وبعد صراع طويل حريف أيضا عين مدرسا في جامعة القاهرة، هذه النغمة التي يسميها يحيى حقي الازدواجية، وهي إحدى الخصائص المميزة للاستاتيكية تظهر في مثال آخر، قسم التاريخ في كلية الآداب جامعة القاهرة دمره الفساد وخربه ووصل به إلي الدرك الأسفل، وبعد أن يتولي الدكتور رئاسة القسم ينشط في سبيل إعادة إنتاجه وفق القيم والمعايير العلمية والأخلاقية، كذا ستصل الجمعية التاريخية إلي الدرك الأسفل من الانهيار والتخبط، وبعد أن يتولي الدكتور رئاسة الجمعية ينشط في سبيل إعادة إنتاجها وفق القيم والمعايير العلمية والأخلاقية، هذه النغمة الحاكمة تظهر في مثال ثالث، فعندما يصطدم الدكتور بعميد كلية الآداب بسبب السيدتين جيهان ونهي السادات وبسبب حرصه علي كرامته، يقول للعميد، أنت تجلس علي الكرسي الذي جلس عليه طه حسين وبتشتغل نخاس، وعندما يصطدم برئيس الجامعة سوف يقوله له: أنت تجلس علي الكرسي الذي جلس عليه أحمد لطفي السيد.

يكتب يحيى حقي عن الاستاتيكية في رواية الثلاثية لنجيب محفوظ ويقول: فنجيب يريد لنا خلق الأب عبد الجواد في الثلاثية فيحكي لنا قصة مخادنته لواحدة شهيرة من العوالم المغنيات ويطلعنا في تفاصيل عديدة علي صورة دقيقة لدخيلة نفسه وعجائب طبعه فيحس القاريء أنه شبع وفهم السيد عبد الجواد حق الفهم من هذه الناحية، وأنه ليس في حاجة إلي مزيد، فإذا بنا نري نجيب بعد قليل بحكم التتابع الزمني وحده يجعل عبد الجواد يهجر هذه العالمة وينقل إلي عالمه ثانية هي نسخة مكررة للأولي، أقصد تكرار الدلالة، وكل هذا قد عرفناه بالكمال والتمام من المغامرة الأولي، فأنت قد تتوهم أن قصد الرواية هو أن تحكي لنا لا من هو عبد الجواد فحسب، بل كل الذي جري له في حياته أيضا، فهي أشبه بالسيرة، وسيرة الابن الأكبر يس الذي نقل الجانب الحسي عن أبيه يصفه لنا نجيب وهو يحاول الاعتداء علي خادمته ويطلعنا كذلك في تفاصيل عديدة علي صورة دقيقة لدخيلة نفسه وعجائب طبعه، فإذا بنجيب وبحكم التتابع الزمني وحده يجعله يحاول الاعتداء مرة أخرى علي خادمة ثانية، إذن ما هو الحد الحتمي الذي يجب الوقوف عنده، كان سؤال يحيى حقي يخص الرواية، وأنا أحب أن أجعله يخص الرواية والسيرة معا باعتبار السيرة نتاجا فنيا، ولكنه بالتأكيد لا يخص الجردة التي يمكن أن تحتل هذا التكرار إلي ما لا نهاية، أرغب أن أشير إلي أن هاجس الدكتور الأول في كتابه، هاجس الصراع واجتياز البحار السبعة من الفقر والفساد هو الذي استدعي هذه الحوادث التكرارية وأيقظها، وأرغب أيضا أن أشير علي الرغم من أنني لا أكف عن محبة طه حسين كأحد أهم الذين لعبوا دورا في تغيير مسارات الأدب العربي في النصف الأول من القرن الفائت إنه المحولجي الأول، أرغب أن أشير إلي أنه كإداري قد يكون أربأ كثيرا مما نتصور، وكفي أن نتذكر معا ما فعله مع الأساتذة محمد غنيمي هلال ومحمد نجيب البهيتي ومع صديقه أحمد أمين وسواهم، وبالتالي تصبح عبارة الدكتور التي وجهها لعميد الكلية، أنت تجلس فوق مقعد طه حسين، مجرد شقشقة من شقشقات الكلام الموروث، وإذا كان النجوم والكومبارس الذين ظهروا في كتاب رعوف عباس قد حظي بعضهم بالذم أو علي الأقل كانت صورهم سلبية في بعض الأحيان مثل محمد أنيس فإن النجوم والكومبارس الذين أظهروا الكتاب في صورة إيجابية يجبروننا علي افتراض أنه قد غلبت علي الدكتور محبته لنفسه فجعلته يتصالح مع من أطلقوا يده ورجلوه ووقروه، خاصة من مسؤولي وزارة الثقافة الذين أشاعوا فيها فسادا يماثل الفساد الشائع في الجامعة، لذا سأفضل اعتبار أحكام الدكتور علي شخصيات تنتسب إلي ما يجب أن تنتسب إليه الأحكام في فنون السيرة، أي تكون أحكاما شخصية غير تابعة للأحكام الموضوعية، لأننا بمجرد النظر إلي أسماء مدوحيه من العاملين في وزارة الثقافة، سنكتشف إلي أي حد يغفل الدكتور ما يعرفه عن كل شخصية.

إن معركة الدكتور من أجل كرامة الأستاذ والتي لا يجب أن يتنازل عنها أمام زوجة رئيس الدولة أو ابنته، جيهان أو نهى السادات، وهي معركة لا بد أن تمنحها حقها من واجب التصديق، لا بد أن نتغافل الشكوك الكثيرة التي تحيطها،

لكي تصبح الحادثة النموذجية التي تدور حول شخصية أصبح اسمها علامة علي خصلة أخلاقية أو صفة من الصفات، هذه المعركة هي قابلة كلما سنحت لها الفرصة أن تمتليء بمضامين جديدة وهذا الامتلاء يجب أن يمنع صاحبها عن الحذر في أحكامه وتعاملاته مع شخصيات مزيفة لا يجد عددها حد، ولا يميزها عن الحقيقة مميز، أرادت امرأة أن تتحت صورة الشيطان علي حليها وعندما تعذر الأمر علي الصانع خرجت المرأة إلي الطريق، ولما وقعت عينها علي الجاحظ أتت به إلي الصانع قائلة: مثل هذا، كنت أتمني أن أقول أراد الدكتور أن ينحت في كتابه صورة للفساد ولما وقعت عيناه علي ذلك المسئول الذي عمل في معية السيدة الأولى أيام السادات ورغم تغيير الأسماء والشخصيات مازال يعمل العمل ذاته، وكأنه أستاذ و خادم في آن، يكتب لكل سيدة نافذة الرسائل العلمية أو الخطب، ويجيد الانحناء، كنت أتمني للدكتور إذا وقعت عيناه علي ذلك الرجل أن يصيح: مثل هذا بدلا من أن يمدحه.

كتاب الدكتور ر عوف عباس شهادة يكتمل بها احترامنا له، ويكفيه أن يخجل من جائزة الدولة التقديرية الممنوحة له ولا يذكرها أحيانا، وأعد الدكتور أنني سأنسى أنه منح هذه الجائزة حتي يظل ثوبه التنظيف نظيفا وأبيض، ويكفيه أنه في تقديره للمناقب العالية لم يتردد خشية النميمة وامتدح في صدق مريم بنت خليفة بن حمد آل ثان، وسultan القاسمي وأجزل القول، حتي الدكتور إبراهيم نصحي رئيس الجمعية التاريخية لمدة 23 عاما (1967-1999)، والذي أوشكت الجمعية في نهاية عهده علي الإفلاسين المالي والعلمي، يظهر لنا كبطل تراجيدي نبيل يحيرنا، فعندما اقترح الدكتور ر عوف الرئيس الجديد للجمعية ضرورة الكتابة إلي الشيخ زايد بن سلطان، والسultan قابوس والشيخ سلطان القاسمي ووافق أعضاء الجمعية نجد إبراهيم نصحي الذي هاله أن تلجأ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية إلي هؤلاء تطلب عونهم، ومصر هي التي كانت تفيض عليهم بخيراتها ورأي في تنفيذ الاقتراح إهانة لا تغتفر وغادر غاضبا ليمتتع نهائيا عن الحضور فيما بعد.

ما كنت أحب أن أهمس به خفية هو تلك الأخطاء اللغوية التي أصبحت فسادا آخر في جامعة اللغة يفوق الفساد في جامعتي القاهرة وعين شمس وغيرهما، وأنا أعلم أن الروائيين بعضهم أخطأوه اللغوية تزيد كثيرا علي أخطاء الدكتور عددا وعدة، انظر روايات الفلاح الفصيح والروائيين الجدد، كذا بعض الشعراء الذين كانوا حراس اللغة وناقضي أبواقها حسب المفاهيم القديمة رحمها الله، هناك أمر آخر أحب أن أهمس به لنفسي، كتاب الدكتور يتبع خطا كروتولوجيا محددًا، ولقد وقع الاختيار علي أن يحتوي الغلاف صورة فوتوغرافية للمؤلف تشير إلي أنه سيكون النغمة الرئيسية في الكتاب، أهمس لنفسي، لماذا ظهر لي الكتاب وكأنه لا يضم حسا ثقافيا عاما، وكأنه محشور في خانة التخصص، لماذا ظهر الكتاب علي هيئة رصيف صغير في حياة تحب أن تتمرد وتمشي في نهر الشارع، في حياة أكبر من التاريخ، الدكتور ر عوف عباس إنني أنتظر الآن سيرة حنان الشيخ التي كتبتها عن أمها، أنتظر أن أعود بعدها إلي مشيناها خطي، وأقرأها قراءة كتب التاريخ ثم أطويها طي السجل.

<http://arabi.ahram.org.eg/arabi/ahram/2006/6/10/ysat0.htm>